## مصارعة الثيران بين العرب والإسبان

**أحمد عمر**

تصاحب عيد الأضحى، ومنذ أن فشت كاميرات الهاتف، عروض مصارعة ثيران على الطريقة العربية، لا أعرف أين يمكن تصنيفها، في باب الملاهي والطرائف، أم في باب المصائب والنوائب. مصارعو الثيران العرب هم المضحّون والضحايا، وليس عندهم عدّة ولا عتاد ولا استعداد ولا زناد، فهم ليسوا مثل الإسبان الذين يجلّون مصارعيهم أحسن الإجلال.

أترصّدُ في كل أضحى مبارك أن تبدّ جهة ما، تطوعاً لوجه الله، طريقةً مثاليةً لذبح الثيران، أو أن تبادر إحدى قنوات التلفزيون الإسلامية إلى بثّ الطريقة الفضلى للذبح، لكنهم لا يفعلون، بل تتعالى الدعوات باستنكار الذبح من بعض المثقفين المتغرّبين الحداثيين مع أنهم من آكلة اللحوم! ورأيت فيلماً على «يوتيوب» عنوانه «الطريقة الصحيحة لذبح الأضاحي»، فاستبشرت خيراً، لكني وجدتُه مثل كل الأفلام، بطله ثور نطح أصحابه ومالكيه، وحطم سيارتهم، وانطلق متحرراً من قيوده، وهو يردد بيت أبي القاسم الشابي: إذا الثور يوماً أراد الحياة، فلا بد أن يستجيب القدر. كان فيلماً تختلط فيه الملهاة بالمأساة، مثل كل أفلام إعداد الثيران للذبح، ينتهي عادة بهروب الثور بعد التنكيل بالمضحّين، كما كان عنترة بن شداد يفعل بالأعداء، في حومة الوغى. كل الثيران ثائرة، سوى ثور الشيف بوراك التركي الضخم الذي تقدّم ضاحكاً مستبشراً إلى حتفه، وبوراك يمشي بجانبه، كل قد علم صلاته وتسبيحه، فلعله من إنجازات حزب العدالة والتنمية أدام الله ظله الظليل ونسيمه العليل. ولم نر في فيلم بوراك سكيناً، ولم ننشد دماً، فالسنّة ألا ترى الأضحية السكين، ونحن أوّلى من الأضحية. ثم رأينا الطباخ العالمي بوراك الذي يقدّم عروض المائدة كأنها عروض سيرك والعاب خفة، وهو يورّخ لحم الثور الأنيق العظيم في أكياس نظيفة أنيقة، عليها شعارات وتهاني، وبحصص متساوية على الجيران، وهو ما يذكّر بقول ماكس وبير في مقالته «السياسة باعتبارها مهنة»: إنّ الدولة هي المجتمع البشري الوحيد الذي يدّعي احتكار الاستخدام الشرعي للقوة البدنية، ويجب أن يحدُث عبر عملية شرعية. أهل المغرب العربي في الجزائر وتونس مولعون بمناطحة الكباش، وهم يعرفون أنّ الإسلام يحرّم المصارعة لما فيها من أذىً لهذه الحيوانات، والرهان عليها أحرم، وهم يقولون، في مقابلات التلفزيون، إنهم مغرمون بها، ويستغفرون الله، لكن الثيران غير الأكباش، فهي ضخمة، وعصية على التدريب، والثيران لا تناطح بعضها مثل الأكباش، وهي ثائرة دوماً، تنطح حتى ظلالها، وهي قويةٌ يصعب ترويضها والسيطرة عليها. شاهدت فيلماً لمسلمين من بلادٍ بعيدة، يقودهم طبيب بيطري، يعرض طريقةً صحيحةً لذبح ثور في عيد الأضحى، وقد أحاط به عشرة أشخاص من أولي القوة، وربطوا الثور من جميع الجهات، فارتبكُ في الأمر وشككت في أنهم قد سقوا الثور مخدّراً، أو أن الطبيب كان يقرأ تعاويذ سحرية عليه!

والخلاصة أيها السادة: إنّ الاسبان أعقل منا وأكثر سداداً، فهم ينظّمون مصارعات ثيران تدرُّ على خزينة الدولة ملايين من الدولارات، ويصير مصارع الثيران بطلاً قومياً، وهو يجندل الثور في ساحة الوغى، بعد عرضٍ يطول ساعة، يستمتع به الملايين، والمصارعة علم ورياضة شاقة وشائقة.

ويزعم فلاسفةٌ أن العرض يظهّر الناس من العنف، في حين أن العروض العربية في الأضحى مهجورة، والضحايا فيها هم أصحاب الثيران، ولا يخلو العرض المصوّر بكاميرا مذعورة في يد الضحية من خسائر مادية، لا نراها في العرض الإسباني، وسبب الأمر كله أن الدولة مشغولة بذبح الثورة عن الثور والأضحية، وأننا نخسر مرتين أو ثلاث: مرّة بهرب الثور وجندلته بالرصاص غدراً، ومرّة بخسارة عرض ترفيهي، ينقلب إلى عرض مأساوي، ومرّة بخسارة الصراع السياسي وإمكانية تعويضه بصراع الثيران، ومرّة بإسعاف الضحايا إلى المشافي المشغولة بضحايا كورونا، فهل من مدّكر.

## بوفيه إماراتي مفتوح للثورات المضادّة

**عبد الحكيم حيدر**

لم أتعجب حينما تحوّلت الإمارات، الدولة الصغيرة المسالمة تاريخيا، إلى بوفيه مفتوح للثورات المضادة، فكل المؤشرات كانت تقودها إلى ذلك المسلك، حيث كانت أغلب ثورات الربيع العربي، في الأصل والثابت والمؤكد منها، أنها ثورات بسطاء الشعوب العربية على المخلفات المتوارثة للحكم، سواء أكان الحكم في يد عساكرها، كحالات مصر وليبيا والسودان والجزائر، أم في يد مختطفي طائفة، كحالة سورية.

تم سقوط نظام حسني مبارك وتم سقوط نظامي معمر القذافي وعمر البشير، وتم أيضا هدم بنية النظام في الجزائر بعد «ركن بوتفليقة»، وما زال «نظام الطائفة» في سورية يستدل كل تناقضات العالم، محافظ على بقائه، إلى حد ما، بقوة الأسلحة الروسية، والمساندة الإماراتية أيضا، (أول من أعادت فتح السفارات في دمشق).

إذن، ترى الإمارات وتراقب أن أنظمة عسكرية قد تم كسرها، علاوة على النظام الطائفي في سورية، فهل بعد ذلك تأمن هي الدولة صغيرة العدد (بنظام عائلي وأسري) لهول تلك الثورات؟

أضف إلى ذلك كراهية أولاد زايد كل شيء يمت إلى الإخوان المسلمين، أو حتى الإسلام السياسي، بأي صلة، قريبة أو بعيدة، اللهم إلا بعض جيوب المتصوفة، على الجفري وعلي جمعة والشيخ أحمد الطيب.. إلخ، عند الحاجة لهم.

تبقى تونس هي مفتاح الحيرة أمام الإمارات، فلا هي دولة يحكمها العسكر، ولا رجال الأعمال لهم الهيمنة الواضحة، كما أن أرباب الفن والموسيقى والتمثيل والتمثيليات وصناعة السينما والأدب والصحافة والإعلام المرتزق، صعب طبْعهم في فنادق الإمارات العائمة، فما العمل في تونس؟ بدأت بفتح بوفيه مفتوح لأتباعها، وكان قد سبقهم رجل الأعمال المصري ساويرس، ولكن ميزانيته لم تكف كل التكلفة، واختارت الإمارات النائية عبير موسي، وأعطوها لجافها البعيد، وقالوا لها: «عليك بكرسي الغنوشي نفسه». وفعلت السيدة ما طُلب منها، وبوقاحة تُحسد عليها بين أغلبية برلمانية من حزب النهضة، وهنا تحضرني «مسرحة الثورة المضادة في مصر»، وكانت بداياتها تتم ما بين رئيس الوزراء الأسبق، كمال الجنزوري، وأعضاء مجلس الشعب حينما قال لهم: «ورقة حل المجلس بالدرج».

الخطة نفسها، كسر هيبة البرلمان باللحاف البمبة، وكسر هيبة رئيسه أيضا بعزله، وذلك لأن المحاكم التونسية ليست في جيوبهم، كالحال بالطبع في مصر. السيناريو نفسه، حل البرلمان في مصر أو إطاحة رئيس البرلمان في تونس. إذن السيناريو كان كذلك، ولا بد أن تكون لعبير موسي عصابة تساعدها، وكان.

لا وجود في تونس لجيوش قوي يسيطر على أوراق اللعبة ليلا، فيشغل القضاء، ورئيس مجلس الوزراء، ولكن فيها ثورة، ما زال عبيرها في أرواح النخبة والناس في الشارع. النخبة في مصر باعت آمالها في 30/ 6 (صيف 2013)، مكيدة في الإخوان المضادة، فانكسرت الثورة، وتم بناء 25 سجنا جديدا. الوضع في تونس مختلف. لا القضاء، يتم إعداد «لقمة القاضي لهم»، ولا «الجنزوري هناك وفي درج من أدراج مكتبه ورقة لحل مجلس الشعب»، ولا هناك أيضا العضو أبو العز الحريري كي يطالب بحل المجلس، كما حدث في مصر مكيدة أيضا في «الإخوان»، مقدمة فقط لباقي السيناريو المعد والجاهز، وحينما يرحل هو عند ربه، نجد ابنه هيثم الحريري عضوا في البرلمان، مكافأة بسيطة لعرق المرحوم أبو العز كي ينام سعيدا في قبره، على الرغم من أنه في المواقف الخطرة للوطن تصيب هيثم الأنفلونزا أو الصداع أو كورونا أخيرا، شفاه الله.

نحن نداعب تمثيليتين متشابهتين إلى حد مضحك، ولكن الأرضية في تونس تختلف، على الرغم من إصرار الإمارات على أن يكمل مشواره مهما بلغت خسائر البوفيه. لم تستطع الإمارات بكل بوفيهاتها، بعبير موسي وبغيرها، أن تكسر تونس، فهل ستكرّر المحاولة من أبواب أخرى؟

## عرب بلا أفق

**كمال عبد اللطيف**

تحل ذكرى الثورة الناصرية في مصر والقومي، وإغفال المؤسسات التي التي يعرفها العالم حولنا، ولم نتمكّن من بنتها الأجيال السابقة، لتُمكّن الأنظمة إدراك أبعادها. أتصوّر أننا طرفٌ مُشارك العربية من أحزمة التشاوُر والتضامن، في الويلات التي لحقتنا ولم نستطع لها ثم التنسيق والتكامل، فقد اختفت، منذ رَفْعاً. وعندما نقف مثلاً أمام صور تعطيل سنوات، مؤتمرات قمة جامعة الدول مؤسسةٍ إقليمية عربية مثل اتحاد المغرب العربية، وعندما تجتمع في مناسبات العربي، سنُدرك بوضوح أن عطالة هذه معينة للقيام بطَقْس تطهيري، لا أحد المؤسسة تعود، منذ عقود، إلى الصراعات ينتبه إلى البيانات التي تصدر عنها. الجزائرية المغربية، وهي صراعاتٌ تتحكّم كما غابت مؤسسات التعاون الإقليمي فيها معطيات سياسية كثيرة تعود إلى العربية، وأصبح مؤكّدا أن إرادة سياسية خمسينيات القرن الماضي، وقد غذّتها، مشتركة خوّلتْها إلى مؤسساتٍ بدون في زمن لاحق، تخندقات الحرب الباردة، عمل. كما يتجلى غياب الأفق، في صور ثم تطوّرت بسبب النزاع الذي نشأ في (أشكال) الصراع المتواصل بين الأخوة موضوع الصحراء المغربية. وكان يمكن الأعداء، في المغرب والمشرق وفي الخليج، أن تساهم المؤسسة المذكورة في محاصرة واكتفاء الجميع بمشاهدة صور ما جوانب عديدة مما جرى في ليبيا. يجري، من دون مبادرات مؤسسية تتيح ينطبق الأمر نفسه على مجلس التعاون وَقْف النزيف. الخليجي الذي بقي اليوم عاجزاً عن لا نريد ربط ما يحصل في العالم العربي إيجاد حلٍ للخلافات القائمة بين مكوناته، بتداعيات ثورات 2011 وما انجبت من وعاجزاً أمام القوى الدولية والإقليمية ثورات مضادّة، ولا ربطه بالمؤامرات الدولية التي تتجه إلى تفكيك المشرق العربي، والإقليمية التي تُحاك ضد مجتمعاتنا، ومنح إسرائيل جوازات عبور نحو بلدان وذلك على الرغم من صلة كثير مما أشير الخليج لبناء صفقة القرن، مقدمة لإتمام إليه هنا من أوجُه ما يجري اليوم في مشروع الشرق الأوسط الجديد. مجتمعاتنا. مستويات الإرتباك السياسي نعتبر أن ما يحصل اليوم في العالم التي تملأ حاضرنا تُعتبر مُحصّلة العربي مرتّب في سياقٍ معين، تتحمّل فيه تاريخية لطبيعة التفاعل الذي حصل وما أنظمتنا ومجتمعاتنا ونخبنا النصيب فتئ يحصل بيننا وبين مختلف التحوّلات الأول والأكبر، أما التكالب والمؤامرات

> نحنُ اليوم أمام تفكّكٍ ينبئ بتحولاتٍ كبيرة، وأمام استعمار يَتمّ بتوسط أطراف بعضها جزء منا

التي تمارسها الأطراف الأخرى الإقليمية والدولية بمعيّتنا، فإنها تندرج ضمن السياق نفسه، بحكم أن التواطؤات القائمة والمُعلنة، وحسابات المصالح التي تقوم بها الأطراف المتصارعة داخل الأنظمة العربية المنهارة، أو الأنظمة التي تنتظر استكمال عمليات انهيارها واختفائها، تمارس مع القوى المتربصة بنا أدواراً مشتركة، الأمر الذي يسهّل عمليات التفكك الجارية، ويُمكّن، في النهاية، من عودة شكل من أشكال الاستعمار إلى البلاد العربية، لنتائج صور تبادل المواقع الحاصلة بين تركيا وإيران في عالمنا، وهي عملية تجري أمامنا. فهما يحضران معاً في سورية، وتحضر إيران أيضاً في لبنان واليمن، كما تحضر تركيا في ليبيا، وهما معاً يحضران بمراسيم أخرى، جغرافية وسياسية وثقافية، وحضورهما ممتدّ في تاريخنا القريب والبعيد. أما روسيا والولايات المتحدة الأميركية وبعض دول الاتحاد الأوروبي (فرنسا وألمانيا وإيطاليا) فإنهم يحضرون في مختلف البؤر المتصارعة في عالمنا، وعناوين حضورهم وغيابهم في مجتمعاتنا ومؤسساتنا مؤكّدة، سواء زَمَن المدّ الإمبريالي في القرن التاسع عشر، أو زمن الحروب الباردة في النصف الثاني من القرن العشرين، وقد أصبح بعضهم يحضر اليوم بتوسّط مافيات السلاح وميليشيات الحروب. أما النتيجة المُترتّبة عن كل ما سبق، فتتمثّل في مظاهر التفكك المتواصلة في العراق وسورية وليبيا واليمن ولبنان. تختلف كثير من جزئيات التفكك والانهيار، إلا أنها قائمة. يتعطل حصول التفكك والانقسام هنا وهناك مؤقتاً، إلا أنه قادم إذا لم تتوفر الإرادة السياسية القادرة على محاصرة عنف التدخلات الإقليمية والدولية الغازية، التي تعلن أنها تحمي الثروات البشرية والطبيعية، وتبحث عن حلول للمأزق السياسية والتاريخية التي تعرفها هذه البلدان.

لا يشبه الخراب الحاصل اليوم في البلدان المشار إليها خراباً مماثلاً حصل في تاريخها، مثلما لا تشبه عودة الاستعمار اليوم ما حصر في القرنين التاسع عشر والعشرين. نحن اليوم أمام تفكّك ينبئ بتحولات كبيرة، وأمام استعمار يَتمّ بتوسط أطراف بعضها جزء منا ومن تاريخنا. وفي السياق نفسه، نتصوّر أن مظاهر الخراب والتفكك القائمة تُعدّ جزءاً من وقائع التاريخ القابلة للفهم والتجاوز في الآن نفسه، ولن يحصل هذا الأمر، من دون وقف التبعية والتناحر الأعمى، ومن دون التعلم من خيبات وهزائم الماضي. ما يقع أمامنا اليوم لا يرتبط فقط بتداعيات الثورات العربية، ولا يمكن تفسيره بارادات القوى الدولية والإقليمية الغازية، ولا بأدوار إسرائيل والغرب في وقف الطموح العربي في التحرير والتقدّم. مؤشرات ما يحصل اليوم على مرأى ومسمع منا تُظهر أننا نقترب من خراب شامل، أو نقترب من ثوراتٍ جديدة قد تُسفعنا برسم أفق نتطلّع إليه.

(كاتب مغربي)

## تكيّفنا ثم تكيّفنا... فانقرضنا

**دلال البزري**

نحن ملوك التكيّف. مهما حلّ علينا من دمار، نجد فوراً طريقة للتكيّف معه، بل للتغنّي به أحياناً، بصفته يحبي فينا ذاك الكائن الأسطوري المسمّى فينيق، نحبّه، نتشبّه به، نعيره أخوّة السلاح. وكلما نجز واحدةً من مهمات التكيّف، ننفجر افتخاراً به أمام بقية شعوب الأرض: انظروا كيف نستطيع أن ننهض من الركام، ونعود إلى الحياة! ذاك الفينيق اللعين، الذي سهرنا على إحيائه، مكابرين، متغاضين، متنكّرين بهندام الكرنفالات. وكان التراب المتراكم فوق رؤوسنا هو مجرّد ذرّات أتتْ بها نسائم رياح؛ شمالية أو جنوبية، شرقية أو غربية .. إنها مجرّد غبار.

مَنْ تتنكّرُ هذه العبقرية اللبنانية؟ ما هي الاختراعات التي ابتُنتها، فجعلت منها نمط حياة وسلوك وقيم؟ نمط جبار، يرتفع مع أعلى الموجات، وينخفض عند اقترابها من الشاطئ؛ بحذْس لا يخطئ، إلى لائحة غير مكْتملة للابتكارات الشعبية، التي تمكّنا بفضلها أن "نعيش"، وأحياناً سعداء، داخل حفرة بلغت حدوداً من التوسع والتعمّق، تفوق الخيال. من تلك الوصفات المبدعة: أي لكي نعيش، ونستمر على بهائنا وطلّتنا، علينا أن نؤيّد المؤقت. والمؤقت هنا ليس بالبراءة التي يمكن أن تعتقد. إنه المخالفة للقانون، أو للعدالة، أو لأبسط مقوّمات العيش، بمعنى مثلاً: لا كهرباء في لبنان، إلا بالقدر الذي ينجو من مزاريب السرقة والهدر. علينا، إذن، بالمولدات الكهربائية، غير القانونية، غير الصحية، غير الاقتصادية، والتي تصبح، بعد حين، رقماً صعباً مع الوزارة المعنية؛ صارت منظمة، قوية، «مسنودة»، «مغطاة»، وتتدخّل لتوزارة المعنية بتسعيرها، إعلامياً طبعاً. إذ لا رقابة على تطبيق أي شيء؛ مثل شركة الكهرباء الرسمية.

وعلينا قبل ذلك، أو بعده، حسب الأشخاص وتجاربهم، أن نتستّر على الأخطاء والخطايا: الزملاء أو الأقارب، أو السياسيين، أو الجيران، أو الأصدقاء .. طلباً للأمان والراحة. أي تحزّن بواحد من هذه الأعمدة الشاهقة هو توقيع فعل موت اجتماعي، أو علائقي، أو مهني. ما عزّز "التوافق" على صورة الذين هم في القمّة، الذين يُقال إنهم يحكموننا. وعبارة "تمشّيات الحال"، أي أن تيسير أمورنا على خير، تتراوف دائماً مع ذاك "التوافق". كم من مرّة سمعت من يقول "هل تريدين تهديم الهيكل على رؤوسنا؟"، اعتراضاً على ملاحظةٍ خجولة، يود أمرؤ أن يسجلها على هذا أو ذاك من أصحاب الربط والعقد.

لا نظن أن "الأصحاب" أولئك هم من جنرالات، أو رؤساء أقسام شرطة .. إنهم ينتمون إلى مختلف الرتب الاجتماعية، من محام، إلى سنكري، إلى مقاول صغير أو متوسط .. إنما سياق العلاقة معهم يفترض الامتثال، عملاً بذكاء لبناني خالص، يفهم من دون أية إشارة، من أين تؤكل الكتف، فيغدق على "قوي اللحظة" كل ما تحتاج أذنه أن تسمع، أو جيبه أن يمتلئ، أو يُسكت عن وساخة شغله، أو غشّه أو مخالفته الواثقة من نفسها لأبسط القوانين. حتى لو كانت تلك القوانين ذات "قواعد اشتباك" معروفة.

فتأتي "الشطارة هنا بصفتها قاعدةً أساسية من قواعد العيش، والاستمرار عليه. الشطارة بأن تلفّف، بأن تستّر، بأن تخادع، بأن تراوغ، بأن تخرج بالمكاسب المطلوبة وسط ركام الفوضى وانعدام النظام «مثل الشعرة من العجينة»، فيكون الغباء هو انعدام تلك الشطارة. بأن تصرّ على ألا تكذب، ألا تساير، ألا تستّر .. فتكون حماراً لم يفهم شيئاً من واقعه الذي حوله، فتعزل عن شبكة المصالح اليومية. أي أنك لم «تطور» العلاقات المفيدة لك، لسمعتك، لتسهيل شؤونك، وربما لرفعك إلى درجةٍ أعلى من الوجاهة.

وإذا لم يكن لدينا وجيه شخصي نخترعه، هو أيضاً، ونحول بعضه إلى شيخ طريقة، «مولانا» نناديه .. أو شيخ شباب الحيّ، «البطل» دائماً وأبداً. في بيئةٍ ضيقةٍ دائماً، يحتل هذا الوجيه مكانة الملْهم الذي تتضافر حوله الكلمات الطيبة والثناء، في المناسبات التي لم تعد قائمة الآن، مع كورونا. ولكن يبقى الطيف «الروحي» لهذين الشيخَين. تلمسه في الإعجابات الكثيرة، بمعنى أو من دونه، ومريدو الشيوخ، مثلهم مثل الجماهير المؤيدة لزعيمها الطائفي: يتعامون تماماً عما يحصل في "المعسكر الآخر"، أو يفكر به، أو يُكتب عنه. لا .. لا يريدون الاستماع إلى وجهة النظر الأخرى، "حفاظاً على الصداقة"، أو "على العلاقة" بيننا، والمعني بهما "المصالح"، مهما صغرت أو كبرت.

ولاكتمال لوحة التكيّف السعيد هذه، علينا أن نعطي الانطباع العكسي، من أننا كلا! ما زلنا عائشين؛ وأي عيش ..! فنروّج «ببيروت بيأي نايت»، والسهر والليالي الملاح. وما يرافقها من درر الكلام: من أن انظروا، هذا الشعب اللبناني المهدّد من كل الجهات، إسرائيل، اقتصاد، سياسية، نفايات، كهرباء .. إلخ .. هذا الشعب ما زال يملك حيوية، يحب الحياة، لياليه الصاخبة، اللافتة، المُبهجة .. تشي بذلك. وكل هذا قبل كورونا.

هذا ولا نتكلم هنا عن جماهير الطوائف المربوطة بحبال سرّة، أسمها العصبية الطائفية و"شبكات الأمان الاجتماعي"، المرئية منها والواقفة خلف ستار. إنّما نتكلّم عن المواطن البسيط الذي يبدو اليوم ضحية نظامه وسياسييه.

في كل الأحوال، جماهير أو أفراد، يقوم هذا التكيّف على رذيلةٍ أساسية: هي الكذب. والكذب بأشكاله المتفاوتة. الكذب بعزّ "التوافق" على صورة الذين هم في القمّة، الذين يُقال إنهم يحكموننا. وعبارة "تمشّيات الحال"، أي أن تيسير أمورنا على خير، تتراوف دائماً مع ذاك "التوافق". كم من مرّة سمعت من يقول "هل تريدين تهديم الهيكل على رؤوسنا؟"، اعتراضاً على ملاحظةٍ خجولة، يود أمرؤ أن يسجلها على هذا أو ذاك من أصحاب الربط والعقد.

> دورنا الوحيد الذي يعطينا الحق بالظهور في لبنان هو دور الضحايا البائسين، التائهين، الضائعين

بالجملة حيناً، وبالمفرّق غالباً. هو الشيطان الذي سمح بازدهار الأكاذيب، بتراكمها، وتعقّدها، وبجدلها بالضفائر المرصوصة. بحيث إنك وبشكل طبيعي، تصبح مثله «تتكيّف»، وتمدّ الكذب بمزيد من الحياة، حتى لو كنتَ صادقاً.

طبعاً سوف تخطر في البال تلك الجملة من الحديث النبوي الشريف، والتي يعتبرها أكثر المجتهدين «حديثاً ضعيفاً». وهي تقول «كما تكونوا يولّ عليكم». يعني أن حكامنا يشبهوننا. وهذه الجملة، ساعد «ضعفها»، على نشر آراء كثيرة مناهضة لها؛ وقد رأت فيها دعماً قوياً للاستبداد. فللمشتكين من حكم الظالمين، تقول الجملة «اذهبوا، حسّنوا أخلاقكم وسلوككم، وسوف يتحسّن تلقائياً معكم الحاكم». وللساكتين يصدّقون، فيروحون يتهذبون، يتقّون، يحسنون، يضنون، لعل وعسى .. فيكونون بذلك جاهزين لحكم جديد، يرفع مظلوميتهم، لا بد أنه أشرس من سلفه، مع أنه آتى من أجلهم، وربما من بينهم.

هذا وضعٌ لا ينطبق على لبنان، فلبنان بلد ديمقراطي، في تأسيسه. بشوائب ديمقراطية، مثل كل الديمقراطيات. وكان على اللبنانيين، منذ البدء، أن يصدّقوا هذه الديمقراطية، ويمارسوا حقهم باختيار حكامهم الأصلح. لكنهم لم يفعلوا إلا العكس؛ فرعوا أرذلهم إلى مجلس النواب، وانتعاش الخطاب الشعبوي المناهض للانفتاح والعولمة. وفي الوسع القول إن المظاهرة التي شهدتها العاصمة الألمانية، نهاية الأسبوع الفائت، تمثل نموذجاً للرفض المتنامي لهذه التحالفات التي تتغذّى على الجائحة، وتستثمر في استمرار تبعاتها المختلفة؛ ذلك أن رفض القيود التي تفرضها مكافحة الجائحة الصحية، ذلك كله يعكس، إلى حد ما، إخفاق الفاعلين المعنيين (منظمة الصحة العالمية، الحكومات، المختبرات، الإعلام، ...) في صياغة سرديةٍ متوازنةٍ بشأن ما يحدث ويسيحدث خلال الأشهر المقبلة. يبدو الوضع أكثر سوءاً في البلدان التي تحكمها أنظمة استبدادية أو سلطوية؛ فضلاً عن العجز المتنامي في الحدّ من الارتفاع المهول في أعداد المصابين، تجد هذه البلدان نفسَها أمام اختبار اجتماعي وسياسي صعب، فالاستمرار في تخفيف تدابير الحجْر ستكون له تكاليف يصعب تحمّلها في ظل تردّي خدمات الصحة والرعاية الاجتماعية. وفي الوقت نفسه، فإن العودة إلى الأخذ بهذه التدابير، بما فيها فصل الصيف، سيُفضي إلى إفلاس اقتصادي واجتماعي ستكون له حتماً تبعاته السياسية، الأمر الذي تسعى إلى تجنبه هذه الأنظمة بأي ثمن. منحت الموجة الثانية من الوباء الذريعةَ للسلطة وشبكات المصالح والنفوذ والثروة للتحكّم في مصائر شعوب وأمم بحالها، من خلال قروض وديون يتم اللجوء إليها، الآن، لمواجهة تداعيات تفشّي الوباء، لكن دورها، في تشكيل خرائط القوة في عالم ما بعد كورونا، سيكون حاسما، حيث ستجد هذه الشعوب والأمم نفسها عاجزةً عن الإيفاء بالتزاماتها تجاه المؤسسات المانحة، ما سيرهن مستقبل أجيال بكاملها، ما قد يُفضي إلى اضطراباتٍ أهلية واجتماعية واسعة.

تضعنا الموجة الثانية أمام تحدّيات كبرى، تتطلب مراجعاتٍ لأشكال التدبير السياسي والاجتماعي والإعلامي لما يستجد من أطوار الجائحة. وكورونا لن تختلف عن الجوائح التي اجتاحت العالم، وساهمت في تشكيل المجتمعات وتغيير مساراتها التاريخية.

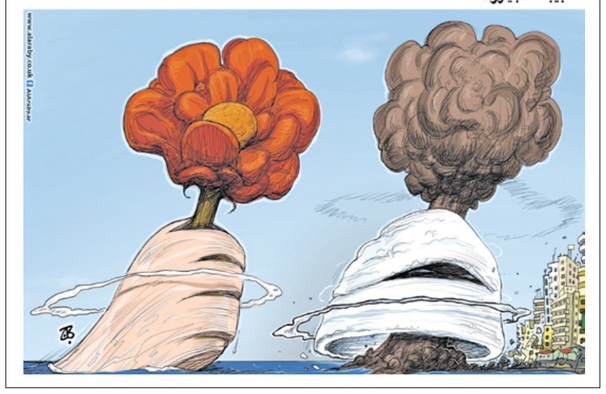


كاريكاتير **عماد حجاج**

## من اختطف الوطن؟

**حلمي الأسمر**

(1)

الأمر يشبه لعبة كرة القدم على نحو أو آخر. عدد من الأقدام تحاول «اختطاف» الكرة بأي شكل. يبدو الأمر أن ثمّة قانوناً يحكم العملية، لكن القدم الحاذقة هي التي تتمكّن من خطف الكرة دون التزام القانون، وبعيداً عن عيني الحكم، بل بالتزام ما يبدو فناً حيناً، وبالخشونة المتعمّدة أصلاً أحياناً كثيرة بلا عدد.

هل هي مصادفةٌ أن تشبه كرة اللعب في استدارتها الكرة الأرضية؟ لا أدري، ربما لاعتبارات «اللعب» استدارت الكرة ليسهل خطفها، وكذا هي الكرة الأرضية، وأوطانها مهما تناهت في الصغر.

يحسب المشاهد أن هناك قانوناً يحكم اللعبة، لكن الحقيقة أن هناك ظاهراً وباطناً لهذا القانون، واضعوه هم أدرى بتفاصيله على الأغلب، ولكي يُحكموا السيطرة على مجمل المشهد، فضّلوا قوانين دولية ومحلية على مقاسهم: مجلس أمن، مثلاً، يمتلك خمسة من أعضائه حق وقف أي قرار، بغض النظر عن فائدته أو مضارّه للبشرية. المعيار هنا هو ما ينفع الخمسة «الكبار» أو يضرّهم. محلياً، هناك حزمة من القوانين «المرنة» في كل بلد تكفل حق النقض نفسه للسلطة، أي سلطة، والتهم جاهزة: تقويض الأمن الوطني، إطالة اللسان، تهديد السلم الأهلي، الانقلاب على نظام الحكم، الخيانة العظمى، وما شابه من عبارات فضفاضة تصل إلى حد «تخوين» المتهم، وصولاً إلى تجريمه، وإبعاده عن طريق السلطة بأي ثمن، حتى لو كان رأسه، وكم من رأس (كرة) تدحرج من مكانه أو أُسكت إلى الأبد. لا يختلف الأمر كثيراً بين دول العالم الأول والثاني والثالث. هناك عملية اختطاف منهجيّة ومرتبة جيداً لجزّ العشب «الضارّ»، حسب تصنيفهم ما إذا كان ضارّاً أو نافعاً، وخطف الوعي أولاً، وتغييب «الرأي العام»، تمهيداً لخطف الوطن. في الدول التي تصنّف «كبرى»، الأدوات والقوانين تختلف، لكن سيدها هنا التصنيفات التي تحارب ما تسمى «الإسلاموية»، وتفسيراتها هنا تتسع حتى تصل إلى حدود مصادرة حرية الرأي، وقمع أي منتقد إجرام كيان صهيوني متوحش، فهو البقرة المقدّسة التي يحظر الاقتراب منها، حتى لو ملأت الحدائق العامة والساحات برؤوثها. أما في الدول «الصغرى» أو المتخلفة، فعملية الخطف تأخذ أشكالاً أكثر بشاعةً وخشونةً ومباشرة، فالوطن كعكة مقسمة بين ذوي الحظوة والنفوذ، ولأولاد الحرّاتين الفتات إن وجد.

(2)

هذه صورة مجملة لعملية الخطف، وتزداد الصورة بشاعةً حينما تقترب عدسة الكاميرا من تفاصيل المشهد، وخصوصاً في بلاد العرب.

بدأت القصة منذ نحو مائة عام، حين تحالف العرب مع الأغراب لهدم بيتهم، على وعد أن يُمكّنوا من تأسيس مملكة العرب مما يبقى من أوطان، كانت ذات يوم تحكمها رايةٌ واحدة، و"سلطان" واحد. الخلاف هنا ليس متعلقاً بما إذا كان السلطان جائراً أو عادلاً، بل بأوهام وأحلام راودت حفنة من "قادة" الأمة باعتلاء كرسي الحكم، فقوّضوا «الخلافة» وحاربوا إخوة الدين، وانتصروا للغرب القادم من الغرب، وقدّموا له كل التسهيلات الممكنة لما "بدا" أنه تحريرٌ من «الحكم التركي»، حتى إذا تمّ الأمر للمنتصر، طوى صفحة «مملكة العرب»، وقسم الكعكة بين شركائه، تحت مسمياتٍ ابتدعها هو، وأضفى عليها صفة «القانون الدولي»، فاشتقّ مصطلح «الانتداب»، ليسطّ النفوذ على البلاد «المحرّرة»!، يزعم أن شعوبها لم تبلغ مرحلة الرشد لحكم نفسها، وتولى هو عملية تدريبها وتأهيلها لمرحلة «الاستقلال»، وفي الأثناء، ارتكب أكثر الجرائم بشاعة، ليس بحق الوعي ومصادرته فقط، بل باتجاه عمليةٍ إبادة بشعة للبشر والشجر والحجر، ونهب ما فوق الأرض وما تحتها، حتى إذا اضطرّ مكرهاً للوصول إلى مرحلة «الاستقلال»، تولى هو عملية «تعيين» وكلاء له حكاماً على الأرض المحرّرة، وانتهت مرحلة «الاستعمار» الصريح المباشر من الأجنبي، لتبدأ مرحلة «الاستعمار الوطني»، وهي مرحلة ملتبسة أكثر لعنةً من الاستعمار الصريح، حتى بات القوم الذين كانوا يقولون: متى ينتهي الاستعمار؟ يتساءلون بمرارة: متى ينتهي الاستقلال؟ بل تمنّى كثيرون أن يتقدّموا بعريضة واسترحام للجهات "المانحة" للاستقلال، لعودة الاستعمار البطال الاستقلال ورموزه يفوق ببشاعته ما ذاقوه من الاستعمار.

هذا هو أصل المسألة، وأي تحليل خارج هذا السياق تغميس خارج الصحن، وخطف وتغييب للوعي الجمعي. فالكرة الأرضية بمجملها مختطفةٌ من تحالف تجّار الأدوية والسلاح والمخدّرات والطاقة، وما يقرّره كهنة هذا التحالف وحاخاماته، وحتى شيوخه، هو ما يُنفّذ على الأرض. أما الأوطان «الصغيرة»، فهي ما بين دول مصنفة «مارقة»، تقع عليها عقوبات السادة الكبار، وقوانين الحرمان والحصار، أو دويلات تدور في المدار المرسوم لها بعناية، وليس مهماً أن يجوع أبناؤها أو يُسحلون أو تشبع الأقبية من ظهورهم. المهم أن تبقى تحت «السيطرة» وتتحرّك داخل الخط المرسوم لها، وأي "زعيم" يفكّر في التمرّد يمكن أن يشقّ يوم عيد النحر، أو تدبّر له ميتة بالسم، أو يرسل إليه أحد من أقاربه لإطلاق الرصاص عليه، تنفيذاً لحكم الإعدام الذي أصدرته العصابة التي تختطف الكرة.

هذا هو التشخيص، فما الحل؟

(كاتب من الأردن)

> الكرة الأرضية مختطفةٌ من تحالف تجّار الأدوية والسلاح والمخدّرات والطاقة

## قطار الحرمين الذي قدّمه خوان كارلوس بلا رشوة

**ياسر أبو هلالة**

لا يستحقّ ملك إسبانيا السابق، خوان كارلوس، هذه النهاية البائسة، يهرب من بلده تلاحقه تهم الفساد، رشى قطار الحرمين التي تلقاها من ملك السعودية الراحل عبدالله بن عبد العزيز. لديه ما يعمله للملوك والحكام العرب. لا أن يتعلم منهم الرشوة، وفي ما خص أقدس الأماكن لدى العرب والمسلمين. ويما أنه تعلم من أصدقائه العرب فلا بد، في المقابل، أن يعلّمهم.

هرب والده أمام الجمهوريين، وتولى البلاد الجنرال فرانكو الذي نجح في هزيمتهم، بعد حربٍ أهليةٍ طاحنة قتلت أكثر من مليون إسباني. تحالف مع الفاشية والنازية ضد شعبه، وخلّد بيكاسو ملحمة جورنيكا التي تزيّن جدران الأمم المتحدة التي دمرها وأهلك حرثها ونسلها تحالف الدكتاتور مع الغزاة. خلّدها التاريخ صموداً وبطولة وخلّده طاغية مجرما، أزيلت تماثيله، حتى من قريته التي ولد فيها.

نشأ خوان كارلوس، في تركيبة عجيبة، ولي عهد لدولةٍ يرأسها جنرال، والده منفي لا يستحق أن يكون ملكا. في عام 1975، توفي الجنرال وصار خوان كارلوس ملكا لإسبانيا. كل إسبانيا التي ظلت ممالك وأقاليم متصارعة، كان بإمكانه أن يقطف ثمار انتصارات الجنرال الدكتاتور وتضحياته، ويواصل سيرته طغيانا ودموية، ويملك البلاد ومن عليها، من دون أن يحتاج رشوة من ملك السعودية.

في ذلك العام، كانت إسبانيا بلدا متخلّفا عالثالثيا، اقتصادا وثروات وسياسة وإعلاما، وكان ديغول يستثنيها من أوروبا «بعد الألب لا توجد أوروبا». كان في وسعه أن ينضم لجامعة الدول العربية التي يشاركها قيم القمع والاستبداد، لكنه اختار أن يكون زعيما تاريخيا، وجعل بلده جزءا من أورو

# هزيمة نيوكاسل... لا تبييض رياضياً لبن سلمان

**ماجد عزام**

أعلن صندوق الاستثمار السعودي، الأسبوع الماضي، انسحابه رسمياً من صفقة شراء نادي نيوكاسل العريق الذي يلعب في الدوري الإنكليزي الممتاز. وتحدث، في بيان مقتضب، عن سببين للانسحاب، المدى الزمني الطويل الذي استغرقته عملية الشراء وما شهدته من مماطلة، حسب تعبير البيان، وجائحة كورونا وما تركته من آثار على كل مناحي الحياة بشكل عام، والمنافسات الرياضية بشكل خاص، وعدم اليقين في ما يتعلق بالموسم المقبل، والمعايير الجديدة التي سوف تقام فيها المباريات والتدريبات والأنشطة الأخرى. والسبب الأول هو الأساسي والمركزي، علماً أن بيان الصندوق لم يتطرّق إلى العوامل الجوهرية لفشل الصفقة. تحدث فقط عن مماطلة في إنجازها. السبب الثاني فرعي وهامشي، كون الصندوق مضى في عملية الشراء شهورا في ذروة انتشار الجائحة، والتأكيدات العلمية أنها لن تنتهي قريباً، ولم يتحدث لحظة عن الاستثمار غير المجدي تجارياً، علماً أن الربح المالي لم يمثل الهدف الأساسي من الصفقة.

والمعلوم أن طلب الصندوق السيادي السعودي أثار شراء النادي الإنكليزي العريق قبل شهور جدلاً كبيراً، وتدخلت عدة جهات لرفض العملية، طارحة أسبابا وجيهة جداً، متعلقة بسياسات السعودية ورجلها القوي وحاكمها الفعلي، ولي العهد، محمد بن سلمان، الذي يتحكّم بالصندوق الاستثماري، كما بكل المؤسسات الأخرى في البلد. جاء الاعتراض الأقوى على الصفقة من شبكة بي أن سبورت الرياضية القطرية التي تملك حقوق بث مباريات الدوري الإنكليزي في المنطقة العربية، وتعرّضت قنواتها وفعالياتها، بما فيها الدوري نفسه، للقرصنة، سنوات وبشكل شبه رسمي في السعودية من شركة تدعى «بي أوت كيو» مع بيع علني لأجهزة الاستقبال وتسديد الرسوم والبث عبر القمر الصناعي العربي عرب سات الذي تملك السعودية سلطة واسعة عليه. ثم جاء حكم منظمة التجارة العالمية لصالح الشركة القطرية، مؤكداً على القرصنة الرسمية، ومطالباً السلطات السعودية بوقفها، بينما ردّت الرياض بقرار يحظر بث الشبكة القطرية تماماً في السعودية، ما أكد أن لا تغيير في الذهنية الاستبدادية المتغطرسة الحاكمة، الساعية إلى الاستحواذ على «نيوكاسل يونايتد» والمدعية الرغبة بالمنافسة في الدوري الأعرق في العالم بشرف ونزاهة وشفافية، وفي إطار الروح الرياضية. وكانت منظمات حقوق الإنسان، وكذا أصدقاء الصحافي السعودي المغتال جمال خاشقجي، تحركوا أيضاً ضد الصفقة، وطالبوا بمنعها، إثر تورّط بن سلمان والحكومة السعودية رسمياً في جريمة قتل جمال البشعة في القنصلية السعودية في إسطنبول، علماً أن المحاكمة التركية، المهنية والشفافة، للمتهمين، أعطت دعما قويا لحملة معارضة الصفقة، كون لائحة الاتهام الصلبة والموثقة، والتي صادقت عليها المحكمة مسبقاً، تحدّثت عن تورّط مستشارين ومساعدين شخصيين لبن سلمان، إضافة إلى موظفين حكوميين رسميين في تنفيذ الجريمة والتستر عليها.

ولم يكن من الصعوبة بمكان إثبات أن الصفقة سعت أساساً إلى تبييض رياضي لبن سلمان في إنكلترا وأوروبا والعالم، في سياق شامل عبر استضافة منافسات رياضية عالمية كبرى في السعودية، ثم شراء نادي نيوكاسل العريق بعد تعثر شراء صفقة «مانشستر يونايتد»، العريق أيضاً، والهدف دائماً إظهار بن سلمان في صورة الزعيم الشاب الحداثي الذي يعمل على انفتاح بلاده على العالم في كل المجالات، بما فيها الرياضية.

كانت الاحتمالات متساوية بين تمرير الصفقة أو رفضها، خصوصا مع تأييد الحكومة الإنكليزية، وحتى رابطة الدوري الإنكليزي الممتاز، لها، وطبعاً مع تأييد واسع لها في مدينة نيوكاسل التي سعت الصفقة إلى إعادة ناديها العريق إلى صفوف الكبار، مع استعداد بن سلمان وصندوقه لدفع 350 مليون يورو في عملية الشراء، إضافة إلى وعود جدّية بآستقدام مدرب عالمي كبير ولاعبين كبار أيضاً سيدفعون الضرائب مع إنفاق ملايين أخرى طبعاً في السوق في نيوكاسل، وإنكلترا بشكل عام. إضافة إلى المعطيات السابقة التي عرقلت الصفقة. ثمّة معطى مهم جداً أجبر الصندوق على التخلي عنها، كونها حققت عكس ما أريد منها، ودليلاً من تبييض صفحة بن سلمان وإظهاره بمظهر رجل الدولة الحداثي العصري والمنفتح والمتسامح، أدّت الصفقة إلى التركيز أكثر على سجله السيئ وانتهاكاته الفظة والمنهجية لحقوق الإنسان، وتورّطه ومساعديه المقرّبين في جريمة قتل خاشقجي البشعة، ثم قرصنة حقوق البث، وعلى نطاق واسع ومنظم، للدوري الإنكليزي، وهي معطياتٌ راسخة وصلبة، أكدت قسوة القيادة السعودية وبشاعتها، وحتى التصرّف بذهنية العصابة، سواء في القرصنة غير المسبوقة، أو جريمة إسطنبول البشعة، كما سجن وتعذيب رجال ونساء من أصحاب الرأي ووجهات النظر المعارضة لبن سلمان وسياساته. وقد كتب صاحب هذا المقال عن الموضوع نفسه في مقالة «تبييض رياضي لبن سلمان» في «العربي الجديد» (2020/4/30)، أنه حتى لو مرت الصفقة، واستولى الصندوق السعودي على نادي نيوكاسل، فسيُحدث هذا بيئة مناسبة ومستمرة للتنديد بن سلمان وسياساته في الساحات والملاعب الرياضية أيضاً، وهو ما حدث في الفترة الماضية. ولذلك فضلت القيادة السعودية الانسحاب، خشيةً من هذا السيناريو تحديداً. أما الحديث عن عدم اليقين في ظل جائحة كورونا فهو سبب هامشي، والربح لم يكن حاضراً أصلاً في الصفقة سوى شكلاً. وقد أنفق بن سلمان نفسه مليارا ونصف المليار دولار تقريباً على شراء قصر ويخت ولوحة فنية، بينما أنفق ذراعه الرياضي ومستشاره وصديقه المقرّب، تركي الشيخ، مليارَي جنيه مصري (أكثر من 100 مليون دولار) في مصر لشراء نادي الأسيوطي، وتحويل الزمالك العريق إلى الأسيوطي، فقط للانتقام من النادي الأهلي الذي رفض تدخله في شؤونه وإدارته، ثم اضطر تركي للمغادرة، في النهاية، تاركاً وراءه ذلك كله مع بطاقة حمراء أهلاوية تاريخية أيضاً.

> ثبتت استحالة تبييض صفحة بن سلمان، وإيجاد صورة ناصعة مزوّرة له مغايرة لشخصيته الحقيقية الاستبدادية الفظة

عموماً، كان الفشل السعودي مدوّياً، وجاءت هزيمة نيوكاسل سياسية إعلامية ورياضية، وأثبتت العملية كلها وجود هواة من دون قدرات لافتة بشأن محمد بن سلمان. والأهم أنها أثبتت استحالة تبييض صفحته، وإيجاد صورة ناصعة مزوّرة له مغايرة لشخصيته الحقيقية الاستبدادية الفظة العنيفة، والمتجاوزة بشكل منهجي للقوانين والمواثيق الدولية داخل السعودية وخارجها.

(كاتب فلسطيني في إسطنبول)

# توحيد الروايات الذاتية للجماعات السورية

**راتب شعبو**

بادرت الدولتان الفرنسية والجزائرية إلى معالجة ما تسميانه «ملف الذاكرة»، فعين الرئيس الفرنسي إيمانويل ماكرون المؤرّخ المتخصص بشمال أفريقيا، بنجامين ستورا، وعين الرئيس الجزائري عبد المجيد تبون مستشاره المكلف بالأرشيف الوطني والذاكرة الوطنية، عبد المجيد شيخي، بهدف العمل معاً لإنجاز مصالحة بين الروايتين الفرنسية والجزائرية، وإنتاج رواية مشتركة تنهي ما يسمونه صراع الذاكرة، وتعالج جراحها التي لا تجف. على هذا الطريق الطويل، توجد مطبات ونقاط ألم ومنزلقات كثيرة، وسيواجه هذا الطريق مقاومات عديدة في فرنسا، كما في الجزائر، لكنه مسارٌ يفضي، إذا نجح، إلى صياغةٍ موحدةٍ عن التاريخ «المشترك»، ويفرض تسوياتٍ واعترافات وتعويضات .. إلخ. وفي كل حال، فإنه مسار يتجه، مهما تعثر أو تقطع، إلى محطةٍ حميدة في صالح علاقة البلدين، عوضاً عن صراع الروايات اللانهائي، والذي لا يفضي سوى إلى تعزيز المشاعر السلبية والعداوات ومزيد من الصراعات غير المجدية.

سبق أن دخلت فرنسا مع ألمانيا في مسارٍ مشابهٍ محاولتين وضع نهاية لتاريخٍ طويل من العداوة بين البلدين، تمتد من الحرب الفرنسية البروسية (1870)، وتمرّ عبر الحرب العالمية الأولى ثم الثانية، إلى حد النظر إلى فرنسا وألمانيا كأنهما «أعداء بالوراثة». بعد جهود مشتركة كبيرة، يقال إنها تعود إلى عشرينيات القرن العشرين، حين بدأ المدرّسون الألمان والفرنسيون بنقد التصورات ذات النزعة العسكرية والقومية لدروس التاريخ، توصل البلدان في 2006 إلى نشر أول كتاب تاريخ مشترك لتدريس المرحلة الثانوية في كلا البلدين، وهو إنجاز لا سابق له في العالم، ويجسّد أحد أهم تطورات العلاقات الدولية الحديثة، أي بروز فرنسا وألمانيا بوصفهما محور أوروبا الجديدة. لفتت التجربة أنظار مثقفين خارج أوروبا، وبشكل خاص في دول شرق آسيا، رأوا أنها نموذج ممكن لمعالجة ماضيهم المليء بالعداوات.

قد تلهمنا هذه التجارب للتفكير على نطاق آخر، في معالجة تعدد الروايات الشعبية في المجتمع السوري لتاريخ واحد. من الملحوظ أننا في سورية لا نزال نعيش في مجتمعات (communities) مغلقة إلى حد كبير بعضها على بعض، ولم تنجح تجربة الدولة الوطنية الحديثة المتعثرة في تعزيز تاريخ مجتمعي مشترك يحترم الجميع ويمكن الركون إليه. ولا يخفى على المراقب أنه بعدما تعثرت الثورة السورية وتحطمت، تغلبت في المجتمع السوري العداوات الداخلية على العداوات مع الخارج، ووجدت الأطراف الداخلية، كل في روايته الخاصة، منبعاً للتشكيك الدائم بالآخرين وانعدام الثقة بهم، ولتعزيز العدائية ضد الأطراف الأخرى. تحوّلت الروايات الذاتية إلى وسائل للتلاعب السياسي والحشد الأعمى على كل جبهات الصراع، وعلى الضد من مصلحة جميع المحشودين.

الروايات التي تتداولها الجماعات السورية، والتي تتعدد بتعدّد الجماعات، وهي في أغلبها روايات شفهية أو مكتوبة بمنطق شفهي، تشكل منبعاً لكراهيات كامنة أو مستورة تسمم الحياة المشتركة في المجتمع السوري، وتتحوّل في لحظة الأزمات الاجتماعية إلى مصدر شحن لا ينضب للعداوات. في هذه الروايات اعتداء، بدرجات مختلفة، على التاريخ «الحقيقي»، بقدر ما يمكن معرفة التاريخ الحقيقي باستقلال عن الذاتيات والانطباعات والتجزيء والتخييل وأعمال الذهن الشعبي المشوّهة (بكسر الواو المشدّدة). في كل رواية، تبدو الجماعة صاحبة الرواية منزهة عن الخطأ أو مغبونة الحقوق أو مستحقة للسيادة .. إلخ، فيما تبدو الجماعات الأخرى ظالمة أو متوحشة أو عميلة .. إلخ.

يمكن في سورية تمييز نوعين من الروايات بحسب طبيعة الجماعات، هناك رواياتٌ قومية أو إثنية، تعمل على صياغة تاريخ يبالغ في الحقوق والمظلوميات، ويشكّل أساساً لسياسات قومية شوفينية (لا ترى حقوق الآخرين). وهناك روايات دينية أو مذهبية تعمل على الرفع من شأن الجماعة الدينية، وتعزيز شعورها الذاتي ولحمتها عبر صياغة تاريخ من مظلوميات وملاحم وأحقيات. تنطلق هذه الروايات كلها من تاريخ فعلي، ولكنها تحلق بعيداً عنه وفق نظرة ذاتية يغذّيها الخوف والطموح معاً. هذا النمط من الروايات يصعب استئصاله، لأنه يجد جذوره في منطقةٍ لا تطاولها المحاججة العقلية والمنطقية، غير أن كتابة تاريخ مشترك بمعايير عقلانية وموضوعية مسؤولة، يسرد بالقدر الممكن من العلمية والتوثيق علاقات الجماعات وصراعاتها، ليكون الأساس في التعليم المدرسي والأكاديمي، تشكل أحد الخيوط التي يُحاك منها نسيج وطني متماسك.

> رواياتٌ سورية، قومية أو إثنية، تعمل على صياغة تاريخ يبالغ في الحقوقَ والمظلوميات

الهروب من هذه المهمة، والإصرار على تعميم تاريخ لا يتحسّس تاريخ المهزومين أو الخارجينَ عن الخط العام، سوف يقود إلى إنتاج تواريخ مضادّة، بل ومتمادية في الضدية. في حين أن إنجاز هذه المهمة يمكن أن يشكل الأساس لاضمحلال الروايات الذاتية للتاريخ المشترك، ما يقود إلى اضمحلال منابع الكراهيات وانعدام الثقة المتبادل، ولا سيما إذا ترافق هذا مع المضي في تعزيز نظام سياسي ديمقراطي تشاركي غير تمييزي.

ندرك أن هذه مهمة شاقة وطويلة النفس، وقد لا يكون لهذا أولوية اليوم، ذلك أن مثل هذه المهمة تنجز في ظل استقرار سياسي فعلي قادر أن يحتضن عمليات الترميم المتعددة الأبعاد. أما اليوم، في ظل التنافر السياسي الحدّي، نجد أن كتابة التاريخ تذهب، على العكس، إلى مزيد من الاستقطاب والذاتية ونفي الآخرين، كما نشهد في المناهج التعليمية المتعدّدة المعتمدة في سورية الممزقة. لكن لا يغير هذا من حقيقة أن المهمة الجريئة لإنتاج تاريخ مشترك يعالج صراع الخيالات والذواكر لدى الجماعات السورية، هي مهمةٌ لا يمكن تخطيها، على طريق ترميم النسيج الوطني، إذا كان لهذا النسيج أن يرمّم.

(كاتب سوري)

# في ارتدادات إعادة آيا صوفيا جامعاً

**عمر كوش**

لم يهدأ الجدل بشأن القرار التركي، القاضي بإعادة فتح «آيا صوفيا» مسجداً، على مختلف المستويات، بل تصاعد كثيراً على مستوى الداخل التركي، وأحدث ارتداداتٍ وإرهاصاتٍ عديدة في الأوساط السياسية والشعبية التركية، وخصوصا بعد إقامة أول صلاة جمعة فيها في 24 من الشهر الماضي (يوليو/ تموز)، بعد انقطاع دام 86 عاماً، حيث أثارت خطبة رئيس هيئة الشؤون الدينية، علي أرباش، فيها، انتقادات غاضبة، وطالبت شخصيات وقوى سياسية تركية معارضة باستقالته على خلفية اتهامه بالتهجّم على مؤسس الجمهورية التركية الحديثة، مصطفى كمال أتاتورك، في خطبته. كما طالب اتحاد نقابات محامي تركيا أرباش بالاعتذار وتقديم استقالته، معتبراً أن «من يشنون هجوماً على أتاتورك والجمهورية من مناصبهم التي وصلوا إليها بفضل الجمهورية، لن يسامحهم التاريخ»، وأن «كلمات أرباش وعباراته بحق أتاتورك لا يمكن الموافقة عليها أو قبولها، وهي مستندة إلى أجندة سرية». وشهدت مواقع التواصل الاجتماعي حملة واسعة ضد الرجل، تطالب بوضع حدّ له وإقالته من منصبه، ما اضطره إلى نشر توضيح قال فيه إنه لم يلعن أتاتورك، لأن الإسلام يدعو للموتى ولا يدعو عليهم، وأنه كان يقصد المستقبل «عندما دعا على من يحول آيا صوفيا من مسجد إلى متحف أو كنيسة».

ومع ذلك رفع «الحزب الجيد» المعارض دعوى قضائية ضد أرباش، واتهمه بانتهاك «المواد التي لا يمكن المساس بها في الدستور التركي»، فيما توعد نائب رئيس الكتلة البرلمانية لحزب الشعب الجمهوري، أوزغور أوزيل، «بدفع ثمن لعن أتاتورك». في المقابل، رأى المتحدث باسم الرئاسة التركية، إبراهيم قالن، أن «من غير الوارد أن يشوه أرباش أتاتورك، ولا نقبل أبدا بأي هجوم على أتاتورك».

وطاولت الحملة على مواقع التواصل الاجتماعي أيضاً، بلال إردوغان، نجل الرئيس التركي، لحديثه، في برنامج تلفزيوني، عن تغيير أتاتورك أحرف اللغة التركية، حيث قال إن «تغيير الأحرف أو الملابس أو الشكل ليس هو معيار تقدم الأمم، وأن تركيا تقدمت خلال العشرين عاماً الماضية على أيدي رجال متمسّكين بدينهم». وكانت ارتدادات قرار إعادة آيا صوفيا مسجداً قد طاولت الرئيس أردوغان، لقراءته مقطعاً من وصية السلطان محمد الفاتح يلعن فيه «أي شخص يمس وقف آيا صوفيا»، وذلك في خطابه إلى الشعب التركي، عقب صدور قرار تحويل آيا صوفيا إلى مسجد في 11 من الشهر الماضي (يوليو/ تموز)، فقد اعتبرته أوساط في المعارضة التركية إهانة بحق مؤسس الجمهورية التركية.

ولم تتوقف ارتدادات قرار إعادة آيا صوفيا مسجداً عند هذا الحدّ، بل طاولت اللوحة الرئيسية التي وضعت على مدخل مسجد آيا صوفيا، وكتب فيها: «مسجد آيا صوفيا الكبير الشريف»، بأربع لغات، الأمر الذي اعتبره قوميون أتراك تعدّياً على اللغة التركية، بحجة أن تسميتها بهذا الشكل استوحيت من اللغة العربية، وطالبوا بأن تسمى وفق المصطلحات التركية الأصلية، وليس العربية. وفي المقابل، احتفلت الأوساط الإسلامية والقومية في تركيا بقرار إعادة آيا صوفيا مسجداً، وتجمع آلاف من مناصريها أمامها، حاملين الأعلام، ومردّدين شعارات وأهازيج تتغنى بما اعتبروه «إعادة فتح آيا صوفيا»، فيما دعت مجلة «غيرجك حياة» (الحياة الحقيقية) إلى إعلان الخلافة في تركيا، ونشرت على غلافها عبارة بالعربية: «إذا ليس الآن فمتى؟ إذا لست أنت فمن؟ اجتمعوا من أجل الخلافة». زادت ارتدادات قرار إعادة آيا صوفيا مسجداً من توجسات أحزاب المعارضة التركية، ومعها المعسكر العلماني، التي تعتبره خطوة في اتجاه إحياء أحلام الإمبراطورية العثمانية في حلّة جديدة، على حساب العلمانية الأتاتوركية، ومن أجل التهرّب من التحديات والمشكلات التي تواجه تركيا وحزب العدالة والتنمية (الحاكم)، لكن معسكر المحافظين يعتبر تلك التوجسات من أوهام المعارضة، ويشير إلى عجزها عن نيل ثقة الشارع التركي. ويبدو أن كل الحملات النقدية والاعتراضية التي تنظمها المعارضة التركية ضد «العدالة والتنمية» تنطلق من خلفية اتّباعها نهجاً سياسياً يقوم على مناكفة هذا الحزب (الحاكم) ورئيسه، بينما لا تقدم على أي خطوة يمكنها أن تحظى بالتفاف جماهيري وإجماع سياسي، على عكس حزب العدالة والتنمية الذي بات متمرساً في كيفية اتخاذ خطوات وإجراءات تنال رضا الشارع التركي، وباتباعه القواعد والإجراءات القانونية، وهو ما فعله بغية إعادة آيا صوفيا مسجداً.

> زادت ارتدادات قرار إعادة آيا صوفيا مسجداً من توجسات أحزاب المعارضة التركية، ومعها المعسكر العلماني

(كاتب سوري)

العربي الجديد
www.alaraby.co.uk
تصدر عن شركة فضاءات ميديا ليميتد (Fadaat Media Ltd)

نائب رئيس التحرير **حسام كنفاني** ■ مدير التحرير **ارنست خوري** ■ المدير الفني **إميل منعم** ■ سكرتير التحرير **حكيم عنكر** ■ السياسة **جمانة فرحات** ■ الاقتصاد **مصطفى عبد السلام** ■ الثقافة **نجوان درويش** ■ منوعات **ليال حداد** ■ الرأي **معن البياري** ■ المجتمع **يوسف حاج علي** ■ الرياضة **نبيل التليلي** ■ تحقيقات **محمد عزام** ■ مراسلون **نزار قنديل**

**المكاتب**
■ المكتب الرئيسي، **لندن**
Unit5, Central Park, Central Way, London, NW 10 7FY
Tel: 00442071480366
■ مكتب **الدوحة**
الدوحة ـ الدفنة ـ برج الفردان ـ الطابق العاشر ـ
هاتف: 0097440190600

■ مكتب **بيروت**
بيروت ـ الجميزة ـ شارع باستور ـ بناية west end 33
هاتف: 009611567794 - 009611442047
■ البريد الإلكتروني: Email: info@alaraby.co.uk
■ للاشتراكات: alaraby.co.uk/subscriptions
هاتف: 97440190635+ جوال: 97450059977+
■ للإعلانات: alaraby.co.uk/ads